الباب الثاني: فرضيات النظرية.

* **الفصل الأول: وصف النظرية.**
* **الفصل الثاني: وصف فرضيات النظرية.**
* **الفصل الثالث: الفرق بين النظرية وعنصر المكان.**

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول: وصف النظرية.

- لماذا الجغرافيا بحاجة إلى نظرية أدبية ؟.
- التعريف بالنظرية.
- النظرية وغيرها من النظريات.

obeikandl.com

obeikandl.com

لماذا الجغرافيا في حاجة إلى نظرية أدبية؟

قوانين الطبيعة تقول أن الشمس تشرق من الشرق، وأنها تغرب عند الغرب. وتقول قوانين الطبيعة أيضًا أن الماء يتجمد عند درجة صفر مئوية، وأنه يتبخر عند درجة ١٠٠ مئوية. أما في مجال وميدان النقد الأدبي والنظرية الأدبية فتقول قوانين الطبيعة أن أفضل من ينقدون الأدب هم بناة ومشيدو ذلك الأدب. أي أن العلوم والمعارف التي تشارك في عملية بناء وتكوين الأدب هي الأولى والأحق، وهي الأقدر على نقد وتفسير وتحليل وتقييم ذلك الأدب.

في نظرة دقيقة إلى مناهج النقد الأدبي وفرضيات النظريات الأدبية، نجد أن الكثير من العلوم والمعارف قد شاركت بقوة وفعالية في نقد الأدب وفي صياغة نظرياته. وإذا ما نظرنا بشيء من التركيز إلى النظريات الأدبية على وجه التحديد، فإننا نجد غالبية العلوم والمعارف التي ساهمت في ذلك المجال، قد كان لكل واحدة منها على الأقل نظرية واحدة خاصة بها، تعبر من خلالها عن فكرها النقدي، وعن رؤيتها لتحليل وقراءة الأدب، فعلم النفس مثلًا يشارك بعدة نظريات في مجال نقد وتحليل الأدب، وعلم الاجتماع له نظريته الخاصة، وكذلك علم التاريخ، وعلم الاقتصاد، والسياسة، والأخلاق، وغيرهم.

مما لا شك فيه أن الجغرافيا قد شاركت وساهمت في بناء وتكوين الأدب، وربما بقدر أكبر بكثير من الكثير من العلوم والمعارف الأخرى. لكن للأسف الشديد، فبالرغم من المشاركات والمساهمات الواسعة للجغرافيا في بناء الأدب وتكوينه، إلا أنها لم تمارس دورها الطبيعي في نقد وتحليل الأدب من خلال نظرية أدبية خاصة بها. أي أنها ولغاية قبل صدور هذا الكتاب بلحظات، لم تكن تمتلك نظرية أدبية خاصة بها وحدها، دون غيرها من العلوم والمعارف. بحيث تحمل فكرها النقدي، وتعبر عن مذهبها الخاص بتفسير وتحليل وقراءة الأدب.

مشاركات ومساهمات الجغرافيا في مجال النظرية الأدبية والتي تعرضنا لها سابقًا بالذكر، سواء في نظرية الترحال، أو نظرية ما بعد الكولونيالية، أو حتى سوسيولوجيا الأدب، جميعها

كانت مشاركات ومساهمات غير كافية لتحقيق طموح الجغرافيا وحقها الأصيل، المتمثل في المشاركة بنظرية خاصة بها في ميدان النقد الأدبي والنظرية الأدبية.

أستغرب كيف أن النصوص الأدبية عالية التركيز الجغرافي، كنصوص أدب الرحلات والروبنسونات، والتي تكتظ أحداثها بالتفاصيل الجغرافية، لم تُثِر اهتمام النقاد والمنظرين الأدبيين، ولم تفتح شهيتهم على الجغرافيا كونها علم وثيق الصلة بالأدب، بحيث يقبلوا عليها، ويفردوا لها شيئًا من جهودهم وابتكاراتهم!!.

التعريف بالنظرية

النقد الأدبي والنظرية الأدبية شأنهما شأن كل شيء في هذه الحياة، بحيث لا يمكن فصلهما بأي حال من الأحوال عن الجغرافيا، كما أنه ليس بإمكان أي منهما الاستغناء عن الجغرافيا. لأن الجغرافيا متداخلة في كل شيء في حياتنا تقريبًا، فهي متداخلة في كل شبر من الأرض التي نمشي عليها، وفي كل ذرة من الهواء الذي نتنفسه، وفي كل قطرة ماء انتهى بها المطاف إلى باطن الأرض أو إلى أحد البحار أو الأنهر أو المحيطات. فلو لم يعرف الإنسان الجغرافيا يومًا كعلم، للمس وجودها غصبًا عنه، واقعًا في حياته وسلوكه، ومن حوله في البيئة الواسعة الممتدة على مد البصر.

باعتقادي لا يستطيع أحد أن يتخيل شيء في هذه الحياة، أو في هذا الكون بلا جغرافيا. لأن الجغرافيا ليست مجرد علم فحسب، لا بل هي من مكونات الكون والحياة، تتجسد معالم نفوذها في كل شيء تقريبًا في هذا الوجود، سواء كبر ذلك الشيء أم صغر، وسواء خطر على بال إنسان أم لم يخطر.

لا غنى عن الجغرافيا ولا مفر منها، لأنها هي تلك الجهة المسئولة عن إعطاء الهوية لكل شيء في هذا الكون الواسع، وما الأدب إلا شيء من تلك الأشياء. لو لم توجد الجغرافيا في هذا الكون، لكان العالم كله دولة واحدة، وبالتالي لكانت له هوية واحدة. وفي هكذا حالة كنا سنجد أن جائزة نوبل للآداب سوف تعطى لأدباء وشعراء وروائيين من دولة واحدة، وبالتالي لن يفوز بتلك الجائزة أديب انجليزي، أو كولومبي، أو برتغالي، أو حتى نيجيري. فالعالم في ظل عدم وجود الجغرافيا، هو عبارة عن دولة واحدة، وبالتالي لا وجود لهكذا هويات وجنسيات!!.

الجغرافيا هي التي تحدد هويات وجنسيات البشر، وهي التي تحدد الاتجاهات والمسافات للمسافرين، وهي التي تحدد الأملاك والأطيان للمالكين. الجغرافيا متداخلة في حياتنا إلى أبعد الحدود، والحديث يطول عن مدى نفوذها، وعن المبالغ التي يبلغها ذلك النفوذ.

جاءت نظرية التحليل الجغرافي للأدب، كي تردم هوة عميقة في حقل النقد الأدبي والنظرية الأدبية. تمثلت تلك الهوة في الغياب الواضح للجغرافيا عن المشاركة الفاعلة في كل من النقد الأدبي والنظرية الأدبية. وكما ذكرنا من قبل، وصل الحال بذلك الغياب الواضح للجغرافيا، إلى حد أنها لا تمتلك نظرية أدبية خاصة بها، أسوة بباقي أنواع العلوم والمعارف.

رواد النظريات الأدبية وواضعوها، تناولوا النصوص الأدبية بالنقد والتحليل والتفسير من شتى الجوانب، فهناك من نقد النص وحلله من الناحية النفسية، وهناك من نقده وحلله من الناحية الاجتماعية، وهناك من نقد وحلل من الناحية الأخلاقية، وهناك من نقد وحلل سواء بالبناء أو التفكيك، وهناك أيضًا من ترك النقد والتحليل كليًا للقارئ، فيما يعرف بنظرية التلقي **Reception Theory**. لكن أحدًا لم يتحدث قبل صدور هذا الكتاب، عن نقد وتحليل نصوص الأدب من الناحية الجغرافية البحتة.

نظرية التحليل الجغرافي للأدب، هي نظرية أدبية تختص بنقد وتحليل وتفسير الأدب من منظور ومنطلق جغرافي بحت. وهي تستهدف في دراستها تلك النصوص

الأدبية، التي تحتوي أحداثها على مبالغة واضحة في السرد الجغرافي، والأماكن، ووفرة في البيانات الجغرافية.

من هذا التعريف نفهم أن نظرية التحليل الجغرافي، تستهدف النصوص الأدبية التي تشارك فيها الجغرافيا مشاركات متقدمة، وليست مشاركات عادية أو بسيطة فحسب. وكما ذكرنا من قبل في مواضع عديدة، إن المشاركات الجغرافية المتقدمة في الأعمال الأدبية، تظهر في نصوص تنتمي لأجناس أدبية محددة، كأدب الرحلات والروبنسونات وغيرهما.

لذلك يمكننا القول أن هذه النظرية، لا تهتم إلا بالنصوص التي تحتوي أحداثها على مبالغة جغرافية، وتلك المبالغة لا تظهر في النص، إلا عندما تتخطى مشاركات الجغرافيا في بناء وتكوين ذلك النص، كونها مشاركات بسيطة وعادية، لتصل إلى الحد الذي يجعلها توصف عنده على أنها مشاركات متقدمة.

كما هو واضح من اسم النظرية، النصوص الأدبية ذات التركيز الجغرافي العالي، هي فقط التي يسيل لها لعاب النظرية، كيف لا وهي ميدان بحثها ومجال دراستها. لذلك أعتقد بأن النظرية لا تصلح للتطبيق على كافة نصوص الأدب، وإنما كما ذكرنا آنفًا تصلح للتطبيق فقط على النصوص التي تحتوي أحداثها، على مبالغة جغرافية واضحة المعالم. فليس من العدل ولا من الصواب أن نطبق النظرية على النصوص التي تشارك فيها الجغرافيا مشاركات بسيطة ومتواضعة. لأن النظرية في النهاية تنشد البحث عن مواطن الغنى والثراء الجغرافي داخل نصوص الأدب المختلفة، وبالتالي فإن النظرية لا تختار سوى نصوص الأدب التي تستحق عناء البحث بداخلها عن مواطن ذلك الغنى أو الثراء الجغرافي.

القيمة الجمالية للنظرية، تكمن في كونها تبحث عن الأماكن العديدة التي تتنقل فيما بينها أحداث النص الأدبي، وفي كونها تبحث عن التفاصيل الجغرافية التي تتوزع ما بين وصف الكاتب وسلوك الشخصيات. بحث النظرية عن الأماكن المتعددة والتفاصيل الجغرافية، يضفي

قيمة جمالية رائعة على عملية نقد وتحليل النص الأدبي. لذلك فالمراقب لنتائج النقد والتحليل التي تعطيها النظرية عند تطبيقها على أي نص، يدرك تمامًا أن تعدد الأماكن ووفرة التفاصيل الجغرافية، هما من أبدع وأروع الجماليات التي تحوتيها نصوص الأدب.

الجمال يكمن في النصوص متعددة الأماكن ووافرة التفاصيل الجغرافية، لأن مسرح الأحداث في هكذا نصوص أدبية يتنقل من مكان لآخر، ففي كل مرة يتنقل فيها مسرح الأحداث من مكان إلى آخر، يأتي الكاتب بتفاصيل وأحداث مثيرة وجديدة، تبدد الملل عن نفسية القارئ وتجلب له التسلية والتشويق والإثارة. أما القارئ لهكذا نصوص فيحس كأنه مسافر فضائي، يركب بساط الريح ويرافق أحداث النص في سفرها وترحالها بين الأماكن المتعددة، فيتعرف من خلال سفره هذا على حضارات وثقافات جديدة، ويتعرف على تفاصيل جغرافية ومعرفية، ووقائع وحقائق مثيرة.

الجمال في هذه النصوص الأدبية يكمن في كون أحداثها لا تتقوقع في مكان واحد، بل تتوزع أحداثها وتتنقل بين الأماكن العديدة. والجمال في نظرية التحليل الجغرافي يكمن في كونها تدرس هكذا نصوص.

ذكرنا فيما قبل أن الجغرافيا تتواجد في شتى أشكال نصوص الأدب، أي أنها تتواجد في الأدب الحقيقي وتتواجد في الأدب الخيالي على حد سواء. وبكل تأكيد فإن النظرية تدرس تواجد الجغرافيا في كلا النوعين من الأدب.

تواجد الجغرافيا في نصوص الأدب الحقيقي يزيد من حقيقية وواقعية تلك النصوص، لأن الجغرافيا الموجودة في تلك النصوص هي الجغرافيا الحقيقية التي نعرفها جميعًا. أما الجغرافيا الموجودة في نصوص الأدب الخيالي فإنها تزيد تلك النصوص بعدًا جماليًا ورمزيًا فقط، ولا تزيدها حقيقية وواقعية، لأن تلك الجغرافيا في كثير من الأحيان تكون تصورية وغير حقيقية، ولعل أبرز مثال على ذلك، هو الجغرافيا الموجودة في رواية جوناثان سويفت **Jonathan Swift**

الشهيرة رحلات غلفر Gulliver's Travels، وفي رواية تولكين J. R. R. Tolkien الشهيرة سيد الخواتم The Lord of the Rings [1].

نظرية التحليل الجغرافي للأدب تدرس جميع أنواع النصوص الأدبية بلا استثناء، شريطة أن يصل مدى مشاركة الجغرافيا في بناء وتكوين تلك النصوص إلى درجة المبالغة الجغرافية. وهذا يعني أن النظرية تدرس نصوص الأدب الحقيقي والأدب الخيالي على حد سواء، ولكن دور النظرية بكل تأكيد هو أن تشير إلى الجغرافيا التصورية أو التخيلية عند وجودها، مع ضرورة التفريق بينها وبين الجغرافيا الحقيقية التي نعرفها جميعًا من خلال كتب الجغرافيا وصفحات الأطلس.

نظرية التحليل الجغرافي تدرس الأعمال النثرية والأعمال الشعرية على حد سواء، لكن التركيز الجغرافي والمشاركات الجغرافية المتقدمة يظهران في أغلب الأحيان في الأعمال النثرية كالقصة والرواية دون الأعمال الشعرية، وهذا ما يجعل الأعمال النثرية كالقصة والرواية أكثر عرضة لتطبيق النظرية من الأعمال الشعرية.

تعتمد نظرية التحليل الجغرافي للأدب على الأطلس (كتاب الخرائط) كمرجع أساسي، في عملية نقد وتحليل النصوص الأدبية التي تستهدفها النظرية بالدراسة. كما يتوجب على الناقد الذي يستخدم نظرية التحليل الجغرافي في نقده وتحليله للنصوص الأدبية، أن يكون مطلعًا وعارفًا بالجغرافيا كعلم وملمًا بالكثير من تفاصيلها ومعلوماتها. ولا بأس في أن يستزيد ذلك الناقد من العلم الجغرافي النافع الموجود في الكتب والمراجع الجغرافية، حول المعلومات والبيانات ذات العلاقة بجغرافية النص الذي يقوم على نقده وتحليله ودراسته. الأطلس وكتب الجغرافيا المتنوعة، هي من أهم أدوات الناقد المطبق لنظرية التحليل الجغرافي في نقده ودراساته.

(1) بإمكاننا العثور على أمثلة مشابهة كثيرة، وتحديدًا في نصوص الفنتازيا والخيال العلمي.

النظرية وغيرها من النظريات

لنتعرف أكثر على ماهية نظريتي، نظرية التحليل الجغرافي للأدب، علينا أن نبحث وأن نتأمل في غيرها من النظريات الأدبية. ولقول أكثر صراحة ووضوح دعونا نقول، أنه لا مناص من عمل مقارنة بين نظرية التحليل الجغرافي للأدب وباقي النظريات الأدبية. فمن شأن هكذا مقارنة أن تبرز وتبين لنا، بعض أهم خصائص وخصال النظرية، وكذلك بعض النقاط التي تلتقي أو تختلف فيها النظرية مع غيرها من النظريات الأخرى.

والمطلوب ها هنا هو ليس إنشاء مقارنة بين نظرية التحليل الجغرافي للأدب وسائر النظريات الأدبية الأخرى، بل المطلوب هو عقد المقارنة مع بعض أبرز وأهم النظريات وليس جميعها. فليس من الحكمة، وتحديدًا في هذا الكتاب، مقارنة نظرية التحليل الجغرافي مع عشرات النظريات الأدبية الأخرى، التي جاءت نتاجًا وحصيلة لإبداعات واجتهادات الآخرين!!.

عقد مقارنة بين نظرية التحليل الجغرافي للأدب، وغيرها من النظريات الأدبية الهامة والبارزة، سيوضح برأيي مدى الجودة الفائقة للنظرية، وسيكشف مواطن كثيرة تتفوق فيها النظرية على نظيراتها. فعند وضعي لمنهاج النظرية راعيت كثيرًا بعض الانتقادات التي وجهت إلى النظريات السابقة. وتجنبت قدر الإمكان الوقوع في نفس المآخذ والمثالب والمبالغات، التي وقع فيها البعض من أسلافي المنظرين الأدبيين السابقين.

أعتقد بأن نظريتي هي واحدة من أفضل نظريات الأدب، وإن شئتم قولًا أكثر صراحة، فإنني أعتبرها النظرية الأفضل.

أنا لا أؤمن بوجود الكمال، سوى ذلك الكمال الخاص برب العالمين تبارك وتعالى. لذلك لا أؤمن بكمال نظريتي أو أي من النظريات الأدبية الأخرى، فلكل نظرية ما يميزها من مزايا وما يعيبها من عيوب. لكن تظل هناك إمكانية للتفريق بين ما هو غث وما هو سمين، ما هو ساطع وما هو باهت، ما هو مقنع وما هو غير مقنع.

النظريات الأدبية هي ليست آيات أو قطع من كتب مقدسة أو صحائف سماوية، بل هي وجهات نظر فلسفية تحتمل كلًا من التشكيك والتأييد. وبما أن تلك النظريات هي في المحصلة النهائية وجهات نظر لا أكثر، إذًا فإن نقد أو تقييم أو ذم أو مديح تلك النظريات لن يعدو كونه وجهات نظر أيضًا. ولذلك فإن النظريات الأدبية تثير دومًا جدلًا واسعًا من الآراء عند النقاش حول ماهياتها ومنهجياتها. فمثلًا النظرية التي تعجب شخص معين قد لا تعجب شخصًا آخرًا غيره، والنظرية التي يهجوها فلان وفلان قد تلقى استحسان غيرهما، وهكذا دواليك.

عندما أفضل نظريتي على غيرها من النظريات، فأنا بالتأكيد لا أنتقص من قدر النظريات الأخرى، وإنما أعبر عن رأيي الشخصي بكل جرأة وصراحة. قد أبالغ إذا ما قلت أن نظريتي هي أفضل نظرية على الإطلاق في عالم النظريات الأدبية، إذ أنني أعتقد أنها لا تتفرد وحدها في صفة الأفضلية على البقية، وإنما تشاركها غيرها من النظريات الرائدة والهامة في تلك الصفة. أي إذا ما حدث شيئًا كإجماع أو شبه إجماع عند النقاد ومنظري الأدب، على أن مجموعة نظريات كالتحليل النفسي، والبنيوية، والتفكيكية، والتاريخية مثلًا هي الأفضل، على مستوى ميدان النظرية الأدبية ككل، فإنني هنا وبلا تردد أضيف نظريتي إلى هذه الباقة المميزة من النظريات الرائدة والطليعية.

بعد دراستي للعديد من النظريات الأدبية وتأملي جيدًا فيها، قررت أن أعقد مقارنة بسيطة بين نظريتي وبعض أهم هذه النظريات. ومن وراء هذه المقارنة أردت أن أبرز بعض المعالم التي قد تتفوق فيها نظريتي على غيرها من النظريات، وأردت كذلك أن أوضح كيف تجنبت نظريتي السقوط في بعض المآخذ التي أخذت على النظريات السابقة.

إذ تبدو المقارنة على النحو التالي:

بالرغم من الأسباب العادلة التي نشأت من أجلها العديد من الحركات الأدبية النسوية في العالم، إلا أن نظرية النسوية **Feminist Theory**، كنظرية أدبية، تظل عنصرية وقائمة على

التفرقة الجنوسية Gender Inequality. الناقد المطبق لنظرية النسوية في نقده وتحليله لنصوص الأدب، لا يرى النصوص ولا يقرأها إلا من وجهة النظر النسوية والأنثوية البحتة. إذًا منهجية النظرية النسوية ترضي وتسر جنسًا بعينه، بينما تزعج وتضايق الجنس الآخر. أما نظرية التحليل الجغرافي للأدب فلم تخوض في قضايا الجنوسة Gender وإشكالياتها وحساسياتها، وإنما جاءت لترضي كلا الجنسين على حد سواء.

الحركات النسوية عمومًا وليست الأدبية منها فحسب، جاءت لتنصف المرأة وتنادي بحقوقها، في عصور مظلمة، امتهنت فيها كرامة المرأة، وانتقص من حقوقها الاجتماعية والسياسية والثقافية والفكرية الشيء الكثير (بحسب الرأي النسوي). فقد كانت مجرد مشاركة المرأة في كتابة الأدب ونقده آنذاك، أمرًا مستهجنًا ومثيرًا للسخرية والاستخفاف من قبل الكثيرين في المجتمعات الذكورية الأبوية المتسلطة (بحسب الرأي النسوي أيضًا)!!.

الكاتبات والمثقفات النسويات رفضن الخضوع لقهر المجتمعات الذكورية، فمارسن النضال الفكري والأدبي في وجه تلك المجتمعات، ولعل أبرز نماذج ذلك النضال الفكري النسوي تجسدت في كتابات العديد من الأديبات النسويات، بداية من الإنجليزية أفرا بهن Afra Behn، وصولًا إلى الإنجليزية الأخرى فرجينيا وولف Virginia Woolf، والفيلسوفة الفرنسية سيمون دي بوفوار Simone de Beauvoir.

الآن وفي ظل حصول المرأة تقريبًا على كافة حقوقها، التي كانت محرومة منها وتنادي بها من قبل، أعتقد أن النظرية النسوية قد خفتت فعاليتها، وذلك بسبب زوال العديد من المسببات التي وجدت من أجلها النظرية.

إذا كانت الأسباب الكامنة وراء ظهور النظرية النسوية هي بالفعل المناداة بحقوق المرأة المغيبة اجتماعيًا وفكريًا وثقافيًا، فإن تلك النظرية واقعيًا قد انتهت، لأن النساء في الكثير من المجتمعات صرن يتمتعن بحقوق أكثر من الرجال. أما إن كانت الدوافع وراء ظهور النظرية

النسوية هي دراسة الكتابات الأدبية التي تنتجها المرأة، أو دراسة ما يكتبه الرجال عن المرأة في الأدب، فإن من شأن هذا وبلا شك أن يثير التفرقة الجنوسية التي تعرضنا لها آنفًا بالذكر.

النقد الأخلاقي للأدب يقوم على نقد وتحليل النصوص الأدبية، من الناحية الأخلاقية والقيمية البحتة. لذلك فالناقد المطبق للنقد الأخلاقي في نقده وتحليله للنص الأدبي، ينظر إلى ذلك النص من الناحية الأخلاقية، أي وفقًا للنظام الأخلاقي والقيمي والفكري الذي يؤمن به ويتبعه ذلك الناقد. لو قمنا بعرض نص أدبي ما على نقاد أخلاقيين من شتى أرجاء العالم، فإننا سنجد حينئذ أن كل فرد من هؤلاء النقاد سوف يقدم لنا نقدًا وتحليلًا للنص، يختلف تمامًا عما يقدمه لنا نظرائه الآخرين. وذلك ببساطة شديدة لأن النظام القيمي والأخلاقي يختلف في مكان ما من العالم عن غيره من الأماكن. فما هو أخلاقي عند (س) من الشعوب قد يبدو أمر غير أخلاقي عند (ص) من الشعوب، وما تتجرأ على فعله (ه) من الشعوب قد تخجل أو تخشى من فعله (ي) من الشعوب.

أي أن ما يبدو أخلاقيًا عند المواطن الصيني قد لا يبدو أخلاقيًا عند المواطن المكسيكي، وما يبدو أخلاقيًا عند الفرد المسيحي قد لا يبدو أخلاقيًا عند الفرد المسلم، وهكذا دواليك.

نظرية التحليل الجغرافي للأدب لها فكر موحد وأيديولوجيا عالمية، لا تختلف من مكان إلى آخر فوق ظهر هذا الكوكب. أي إذا ما جئنا بنقاد من شتى أرجاء العالم وعرضنا عليهم مهمة تحليل نص أدبي معين تحليلًا جغرافيًا، فقد تتشابه نتائج النقد والتحليل التي يعطيها اولئك النقاد إلى حد كبير، وذلك كما ذكرنا لأن الجغرافيا هي عبارة عن موضوع عالمي كوني، يتخطى كل الفروق البشرية والاختلافات الأنثروبولوجية التي قد يفرضها اختلاف البيئة، أو الهوية، أو العرق، أو الديانة.

وبالتالي فإنه في حالة قيام ناقد من روسيا مثلًا بتحليل نص أدبي معين، تحليلًا جغرافيًا، فإن تحليل هذا الناقد سيناسب ويرضي غيره من النقاد والمتذوقين في شتى أرجاء العالم وإلى

حد كبير على أقل تقدير. أما قيام ناقد من قبائل التبو الصحراوية [1] مثلاً بتحليل نص أدبي معين، تحليلًا أخلاقيًا، فذلك لن يناسب ولن يرضي الكثيرين من النقاد والمتذوقين في كثير من أرجاء العالم.

بإمكان ناقد واحد فقط أن يقنع العالم بأسره من خلال نقده وتحليله لنص أدبي معين، نقدًا وتحليلًا جغرافيًا، لكن العالم قد يحتاج إلى مساعي ومحاولات عشرات أو حتى مئات من النقاد، من أجل وضع مقاربات نقدية لنص أدبي معين من الناحية الأخلاقية، وذلك لأن النظم الأخلاقية تختلف وتتنوع بتنوع القبائل، والمجتمعات، والحضارات، والشعوب، والثقافات. على العكس تمامًا من الجغرافيا التي تبقى ثابتة المعايير عالميًا وإلى حد كبير.

نظرية النقد الجديد **New Criticism** جاءت لتهتم بالنص وحده دون سواه. ونظرية التلقي **Reception Theory** جاءت لتهتم بالقارئ وحده، دون باقي مكونات المعادلة الأدبية. لكن نظرية التحليل الجغرافي للأدب، جاءت لتعبر عن رؤية أعم وأشمل، مما جاءت به هاتين النظريتين، وجاءت لتعبر عن رؤية أعم وأشمل، من جميع ما جاءت به النظريات التي على شاكلة هاتين النظريتين. فنظرية التحليل الجغرافي للأدب تهتم بكافة أطراف ثالوث المسألة الأدبية، أي أنها تهتم بالنص والكاتب والقارئ على حد سواء. وبذلك تقدم النظرية رؤية سلسة طيعة، وأكثر براغماتية من الكثير من نظريات الأدب الصارمة، والمتيبسة الرؤى والمواقف.

إذا ما عقدنا مقارنة بسيطة بين نظريات التحليل النفسي **Psychological Analysis** ونظرية التحليل الجغرافي للأدب، فإننا سوف نجد أن نظريات التحليل النفسي تنظر إلى النص الأدبي من ناحية روحية ومجردة واستنتاجيه. فالنقاد النفسيين يتعاملون مع النص الأدبي على أنه حلم، وبالتالي فإنهم يفسروا ذلك النص ويجتهدوا في تحليله، وكأنه حلم أو ظاهرة غيبية [2].

---

(1) قبائل تسكن في الناحية الشرقية من الصحراء الكبرى.

(2) Bressler C. E : Literary Criticism: An Introduction to Theory and Practice - Prentice Hall - New Jersey 1994 - P 88.

منظرو التحليل النفسي أمثال سيجموند فرويد Sigmund Frued، جاك لاكانJacques Lacan، كارل يونغ Carl Jungوغيرهم من الرواد. زادوا من تداخل التحليل النفسي في ميدان النظرية الأدبية، وفي ممارسة نقد وتحليل الأدب، وأدخلوا تحديثات متعاقبة على نظريات ومناهج التحليل النفسي بأشكالها المتعددة، وفي المحصلة النهائية لعمليات التحديث والتطوير تلك، صارت نظريات التحليل النفسي تغطي باهتماماتها ثالوث النص والكاتب والقارئ. إذ يمكننا القول أن النقاد الأدبيين المطبقين للتحليل النفسي في نقدهم وتحليلهم، قد غطوا المعادلة الأدبية باهتماماتهم ودراساتهم من شتى جوانبها وأبعادها.

الفرق بين التحليل النفسي والتحليل الجغرافي، يكمن في أن التحليل النفسي يبدو تحليلًا ظنيًا استنتاجيًا، أكثر منه وصفيًا تطبيقيًا. أي على العكس تمامًا من التحليل الجغرافي، الذي يعتمد بشكل كبير على الأسلوب الوصفي. كما أن التحليل النفسي يدرس الظواهر الروحية والمعنوية، والأساطير، والخيالات والأشياء المجردة، والعالم الغير مرئي. أما التحليل الجغرافي فيدرس الماديات والكيانات المحسوسة والمجسمة والملموسة.

ظاهرة نفسية مجردة كالهستيريا مثلًا، لا يمكنك ملاحظتها بواسطة أي من حواسك الخمس. لكن من خلال نظرية التحليل الجغرافي يمكنك أن تدرك الأشياء وأن تلاحظها واقعًا ماديًا ملموسًا. وذلك لأن نظرية التحليل الجغرافي تنظر إلى النص الأدبي، على أنه مجموعة من الأماكن والمواقع والامتدادات، كما وأنها تعتبر العالم الحقيقي الواقعي بأسره وبقاراته السبع، مسرحًا رحبًا لكافة الأعمال الأدبية التي أنتجتها وتنتجها البشرية. باختصار يمكننا القول أن منهج التحليل الجغرافي مرتبط بقطع اليابسة والمسطحات المائية والمساحات التي تقاس بالأميال والكيلومترات، وليس مرتبطًا بالأحلام والتخيلات والرؤى الاستنتاجية كما في التحليل النفسي.

إذا دارت بعض أحداث من عمل أدبي معين، في دولة ما كالكاميرون مثلًا، فحينها يمكنك إدراك وجود الكاميرون بحواسك الخمس، وهذا بالطبع هو الفرق بين إدراك كل من الكاميرون

والهستيريا. إذ يمكنك السفر إلى الكاميرون كي تراها بأم عينيك، في حين لا يمكنك السفر إلى الهستيريا. وبإمكانك أن تشم رائحة زهور الكاميرون، لكن ليس بإمكانك أن تشم رائحة زهور الهستيريا!!. وباستطاعتك أن تلمس الكاميرون حينما تأخذ في راحة يدك شيئًا من ترابها، لكنك بالتأكيد لن تستطيع فعل ذلك مع الهستيريا. وذلك ببساطة شديدة لكون الكاميرون كيان فيزيقي ملموس ومحسوس، بينما الهستيريا كيان مجرد ومعنوي وتخيلي وغير ملموس.

النقد والتحليل باستخدام منهجية من المفاهيم والظواهر المحسوسة والملموسة، يعطي وبلا شك نتائج موثوقة وأكثر إقناعًا ومنطقية، من النقد والتحليل باستخدام منهجية من المفاهيم والظواهر الخفية والمجردة والتخيلية. فالحديث من وجهة النظر الجغرافية عن البحر الأبيض المتوسط بأبعاده المساحية الحقيقية المعروفة للجميع، يبدو وفي كل الأحوال أكثر إقناعًا ومنطقية، من الحديث من وجهة النظر النفسية عن اللاشعور بأبعاده الغامضة والغير محصورة.

واقعية نظرية التحليل الجغرافي وسعيها وراء الماديات والمحسوسات بالبحث والدراسة، هو بالتأكيد شيء إيجابي يحسب للنظرية. أما تجريدية نظريات التحليل النفسي وسعيها وراء التخيلات والمعنويات بالبحث والدراسة، فهو أمر يكشف مدى شجاعة وجرأة ومغامرة تلك النظريات، ولا يقلل ذلك من قدرها وقيمتها على الإطلاق.

عندما وصفت منهاج نظريتي بأنه أعم وأشمل من مناهج كثير من النظريات الأخرى، فأنا بالتأكيد لا أعارض خوض النظريات الأدبية وتغلغلها في التفاصيل الدقيقة للأدب، ولا أعارض تخصص بعض تلك النظريات في جوانب دقيقة وتفصيلية من دراسة الأدب.

فبلا شك دخول النظريات الأدبية عالم النقد والقراءة الأدبية على هذا النحو من الدقة والتخصص، هو أمر يحسب لتلك النظريات الجريئة والمبدعة. فربط النظريات الأدبية مثلًا بين علم النفس وعلم الاجتماع مع الكتابات الأدبية، هو بلا شك إبداع وتميز. وربط النظريات الأدبية بين تخصصات علمية ومعرفية أكثر دقة من علمي النفس والاجتماع مع الكتابات الأدبية

المختلفة، يعتبر أمرًا أكثر جرأة وإبداع. فكلما ازدادت دقة وتخصص الموضوع أو المنظور، الذي تتم من خلاله دراسة النظريات الأدبية للأدب، كلما ازدادت هذه النظريات تميزًا وإبداعًا. فمن ينكر أن الخروج عن التقليد والإتيان بالجديد هو إبداع؟!.

كما ذكرت في معرض مقارنتي بين التحليل النسوي والتحليل الأخلاقي من جهة، والتحليل الجغرافي من جهة أخرى. فإن نظرية التحليل الجغرافي للأدب جاءت بعيدة كل البعد عن كافة الأشياء التي من شأنها إثارة الخلافات أو الحساسيات العرقية، أو الدينية، أو القومية، أو الثقافية بين الناس. فالنظرية من حيث منهجيتها وفرضياتها تخلو تمامًا من أي مكونات أو إشارات، قد تؤدي إلى إثارة هكذا خلافات، أو نزاعات، أو حساسيات بين البشر وبعضهم البعض (هذا من الناحية النظرية).

لكن تطبيق النظرية عمليًا على نصوص الأدب، يبدو أمرًا غير مأمون ولا مضمون من تلك الناحية. فالناقد المطبق لنظرية التحليل الجغرافي على نص أدبي معين، ربما يعبر عن آرائه الجغرافية أو السياسية أو الانثروبولوجية الخاصة، والتي يؤمن بها شخصيًا أو يؤمن بها قومه. فهكذا ناقد ربما يثير حفيظة غيره من النقاد والمتذوقين للنقد، وذلك في حالة تطرقه في نقده وتحليله لنص أدبي معين إلى قضايا خلافية. كقضية وجود نزاع حدودي بين دولتين وميل الناقد إلى دولة منهما على حساب الأخرى. أو تسميته إقليم معين باسمه الانفصالي الجديد، في حين أن هذا الإقليم لم يعترف به رسميًا ودوليًا بعد. أو سخريته من دولة أو كيان سياسي معين بسبب مكونه الديمغرافي، أو الثقافي، أو الإثني، وغير ذلك. هذه جميعها أمثلة على الحالات التي قد يتضمنها أي تحليل جغرافي مثير للجدل والآراء لنص أدبي معين.

لمزيد من التوضيح نقول، لو كان لدينا نص أدبي عالمي ذائع الصيت، بحيث يتضمن مدينة القدس كأحد المحطات التي تتنقل فيما بينها أحداث ذلك النص. ولو جئنا بناقدين أدبيين اثنين، أحدهما من الولايات المتحدة الأمريكية والآخر من مصر، وأوكلنا إليهما مهمة تحليل ذلك النص

تحليلًا جغرافيًا. حينها سيقدم الناقد الأمريكي مدينة القدس في معرض تحليله ونقده على أنها مدينة (إسرائيلية)، بينما الناقد المصري سيعتبر القدس على أنها مدينة (فلسطينية). الأول سيزعج بنقده وتحليله هذا كل من العرب والمسلمين، بينما الثاني سيزعج بنقده وتحليله كل من الإمبريالية والصهيونية. أما منهجية وفرضيات نظرية التحليل الجغرافي للأدب، فهي من الناحية النظرية لا تزعج ولا تضايق أحد من شعوب الأرض. وإنما كما ذكرنا من قبل، فهي ترضي الجميع بلا استثناء.

عندما قارنت نظريتي، نظرية التحليل الجغرافي للأدب، مع بعض النظريات الأخرى. وضحت معالم الفرق والاختلاف بين النظرية وغيرها من النظريات المتعددة. لم أقارن نظريتي بالنظريات التي قارنتها بها في سابق الصفحات، كي أثبت تفوق نظريتي على تلك النظريات بشكل مطلق. ولم أزج بنظريتي في مقارنة مع تلك النظريات كي أنتقص من قدر هذه النظريات بالتحديد. بالتأكيد لا، لأن النظرية الأدبية كما ذكرنا في عدة مواضع سابقة، هي وجهة نظر فلسفية. وبالتالي أنا أحترم جميع النظريات الأدبية باختلاف أشكالها وأنواعها، دون الانتقاص من قدر أي منها، لأنها تبقى في النهاية وجهات نظر تحترم، حتى لو اختلفنا معها في بعض القضايا والمسائل. والخلاف في الرأي كما تعلمون، لا يفسد للود قضية.

obeikandi.com